

الأبعاد الحضارية للأدب المغربي ومراحل نشأته

(في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي)

د. حجيج معمر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة باتنة

أولا - الأبعاد الحضارية:

إن مفهوم البعد (Distance) الذي يعني لغويا ما هو ضد القرب؛¹ ويعني ما يفصل بين نقطتين في المكان، ونادرا ما يدل على فاصل زمني بين لحظتين،² كما يعني امتدادا قائما في الجسم أو نفسه ثم القائلين بوجود الخلاء وأبعاضه³ المجتلب أساسا من الفكر الفلسفي والحقل الهندسي الذي يفترض للوجود أبعادا ثلاثة، ثم أضيف البعد الزمني الرابع في نظرية أنشتاين النسبية،⁴ ثم أدخل إلى العلوم النفسية والاجتماعية والأدبية فأصبح يعني: "...درجة التفاهم الوجداني أو درجة التداخل أو الود التي يشعر بها طرفان كل إزاء الآخر، وهذان الطرفان قد يكونان فردين أو جماعتين..."⁵

وفي تحديد نمطيه يمكن التمييز بين درجة الود التي تتم بين شخصين من طبقة اجتماعية واحدة، ويطلق عليه اسم البعد الاجتماعي الأفقي، والتي تتم بين شخصيين من طبقتين غير متكافئتين، ويطلق عليها البعد العمودي.⁶ ويبدو أننا نعني بالأبعاد الحضارية تلك الأطراف الأساسية المندمجة من جراء جدل ناتج عن تجربة اجتماعية إنسانية تاريخية كاملة تتجه إلى تحرير الإنسان من كل ما يعوقه في استكمال كرامته، وانصع صور لهذا التحرر المعنوي والحسي يظهر في ذلك الترسيخ الروحي الفكري الذي لا فاعلية لهما خارج التشكيل المستمر

¹ - لسان العرب، مادة بعد، تقديم الشيخ عبد الله العاللي مجلد رقم 1 دار لسان العرب بيروت لبنان 1408 هـ 1988 م ص 231.

² - Dictionnaire du Français Contemporain. Librairie Larousse /Paris /p386

³ - الجرجاني، التعريفات، تحقيق لإبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405، ص 66.

⁴ - الموسوعة الميسرة، م 1، مطبعة الشعب مصر، 1407 هـ - 1987، ص 292.

⁵ - معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص 94.

⁶ - المصدر نفسه، ص 95.

لأنساق جمالية، وأكمل صور جدليتهما تبدو في هذا الإصرار لإثبات وجودهما ضمن صيرورة أدبية خلاقة تتدرج بالإنسان في مدارج الحضارة بجميع أبعادها، والتي تمثل خيارات الإنسان لرموزه لتبقى شاهدة عليه بنبضها التاريخي الحضاري المفترض بعد غيابه الجسدي عن هذا الوجود، لأن الرموز تتولد من العلاقات الخلاقة بين الكلمات، وهي في الوقت نفسه تمثل كما يقول سبتسر: "علاقات حضارية وروحية"¹. وأي حضارة كاملة هي جدل بين الانتماء والانتماء تبدأ من دائرة فضائية منتمية لتنتهي إلى دائرة لا دائرة بعدها بحيث يتوحد فيها الأنا والآخر، ويبدو هذا خاصة في شعر سابق البربري الذي يعد أول شاعر كرس شعره كله للزهد والموعظة يقول في قصيدة

يخاطب بها عمر بن عبد العزيز:²

بسم الذي أنزلت من عنده السور الحمد لله أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر لمجلوب وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
وهذه أطول قصيدة قالها الشاعر في بداية القرن الثاني الهجري، وهي كلها في الزهد والحكمة والموعظة من وجهتها الإنسانية والإسلامية في بعدها الحضاري الذي يبدأ من المنتمي لينتهي إلى ألا منتمي.

1.1 - البعد الحضاري المكاني والتاريخي:

1.1.1. البعد الترابي للمكان:

لا يخفى أن عنصر المكان من المكونات الرئيسية في تشكيل هوية الحضارة وتميزها في بعديها الإنساني والمحلي، ويمكن تبين دور المكان في المركب الحضاري بالاكتهاف بالإشارة إلى معادلة مالك بن نبي الذي لا يرى في الحضارة غير تجميع تفاعلي عقائدي فكري للإنسان والتراب والزمن،³ ولا نستغرب ذلك فإن هذه المكونات لا يتحقق وجودها إلا بكيفية عضوية، وبهذا يكون فهمنا للزمان على أنه التحقق التاريخي المستمر لفاعل ما في فضاء وزمان معين، ولا وجود للزمان خارج المكان، ولا وجود لهما خارج مدرك لهما، ومحقق لكيونته فيهما؛ لأن الحضارة ليست إلا "نتاج فكرة حية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر

¹ - محمد شكري عياد، اتجاهات الدرس الأسلوب، أصدقاء الكتاب، القاهرة، 1969. ص 58.

² - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1969، ص 7-8.

³ - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر مصر، ط 3 1969 ص 191-216.

الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره، وعلى هذا تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى والحضارات الأخرى¹ ومادام للحيز هذه المكانة في تحديد هوية الأنساق الثقافية للجماعة التي تنتمي إليه أصبح من الواجب الإلمام بملامح الأدب المغربي القديم من حيث الفضاء المكاني وعلاقته بالأنماط الثقافية وبشخصية الإنسان المغربي الذي شكل بها أنساقا فنية وأدبية.

ويتمثل الوجود المكاني لهذا الأدب في هذا الجزء من العالم المتوسطي الإفريقي القديم الذي كان يطلق عليه اسم (ليبيا) قبل الفتح الإسلامي وبالضبط منذ سبعة قرون قبل الميلاد، والمؤرخون ينسبون هذه التسمية إلى اليونان، وقد استمدوها من اسم مدينة "لوبيّة" القديمة عاصمة الإقليم الشرقي الواقع وراء الإسكندرية غربا،² ثم أطلق اسم "إفريقية" في عهد الفينيقيين على القسم المتاخم للأول غربا. كما قسمته بعض الكتابات الإغريقية، واللاتينية والفينيقية، إلى مناطق كل منها يحمل اسما خاصا بها فكانت هذه المناطق عند البونيقيين واللاتين هي: ليبيا وإفريقية، ونوميديا، وموريطانية الشرقية، وموريطانية الغربية.³

وجاء العرب أثناء الفتوحات الإسلامية فأطلقوا على كل هذه المناطق اسم المغرب بالمقارنة إلى وطنهم الأول في الجزيرة العربية، أو الشام في العهد الأموي، أو العراق في فترة الخلافة العباسية.

وإذا كانت تسمية هذه الأقاليم الجديدة التي تم فتحها في غرب بلاد العرب، والتي تضم من القارة الإفريقية: إقليم المغرب الأدنى أو إفريقية والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، ومن قارة أوربا بعد القرن الأول الهجري، إقليم الأندلس، وجزيرة صقلية، فإن الحدود الفاصلة بين مغرب بلاد الإسلام ومشرقه لم تكن واضحة بالقدر الكافي عند معظم المؤرخين والدارسين القدامى، وفي رأينا، فإن ما جاء به كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي، والذي يتخذ من النيل حدودا طبيعية بين مغرب بلاد الإسلام ومشرقه نقلا عن مروان في كتابه "المقياس" وابن حمادة في كتابه "القبس" وغيرهما من المؤرخين أن حد المغرب هو ضفة النيل

1 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مكتبة عمار القاهرة، ط1 1971، ص49

2 - د/سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، دار المعارف، الإسكندرية، 1979، ص64

3 - محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، القاهرة 1963، ج1، ص 3

بالإسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب... وتنقسم أقساما: قسم من الإسكندرية إلى طرابلس، وهو أكبرها وأقلها عمارة، وقسم من طرابلس... إلى مدينة تيهرت، يليها بلاد المغرب، وبلاد الأندلس أيضا من الغرب وداخلة فيه لاتصالها به...¹

هذا الفضاء الجديد للأدب كان من أثاره هذا التوتر الدلالي بين الانتماء القبلي المحلي والانتماء الحضاري الإسلامي الإنساني الذي هو نفي وجدل للأول في رؤية مازالت تطمح إلى تجاوز ثنائية الأنا والآخر يقول سابق البربري المظمطي حين قتال البربر للروم بإفريقية أيام سليمان بن عبد الملك:²

يا معشر الروم ارحلوا عن بلادكم وخلوا لنا عنها بطي المراحل
فقد قصدتكم بربر بسيوفها وأحلافها أهل الرماح الذوابل
قبائل من بر بن قيس وخندف وذو يمن في عزها المتطاول

ويلاحظ أن الشاعر يعد الوجود الواقعي للإنسان في أي فضاء هو انتماء لذلك المكان، وما استخدامه لعبارة "بلاككم" إلا من قبيل هذا الفهم الذي يعني قابلية الخلط في الانتماء المكاني في حين ينتفي هذا الخلط في الانتماء الحضاري في بعده إنساني، فالمكان بهذا التصور ليس سوى بعدا للصراع بين الانتماء وانتفائه. ونصل من هذا الاستعراض إلى تقرير بعض الحقائق، ومنها أن أبعاد البيئات الجديدة التي رحل إليها الأدب العربي، وتأصل وتطور فيها لم تكن مخالفة لأبعاد بيئاته الأصلية، ولا عجب في ذلك فهي تضم أكبر فضاء صحراوي على المعمورة، بالإضافة إلى ملامح طبيعية أخرى مناقضة للأولى تضيف تنوعا وثراء لروح الأدب فكرة وأسلوبا وجمالا.

2.1.1. البعد الروحي والوجداني للمكان:

إن الإحساس بالانتماء للمكان الترابي لا يملك كل الفاعلية التي تجعل منه محرك إبداع يشكل واقعه تشكيلا حضاريا ينم عن إحساس بمسؤولية خلافة الإنسان لخالفه فوق هذا الكوكب، ومن ثم لكي يكون المكان الترابي معبأ ومبرمجا للفاعلية الحضارية لابد من شحنه عقائديا وروحيا وفكريا، والحيوية الحضارية لأي أمة إذا لم تجد ما تملأ به المكان من إسقاط روحي وفكري وجمالي ثابت ومؤصل لتلجج

¹ - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تحقيق كولان وبروفنسال، دار الثقافة بيروت ط3، 1983 ص16

² - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1969، ص1

إلى المخيلية التي لا تعجز في جميع الأحوال عن جبر كل نقص أو غياب، وهذا ما يفسر الاتجاه إلى اختلاق أحاديث نبوية لإضفاء القداسة على بعض الأماكن والمدن المغربية، على غرار الأحاديث التي تبين فضل المنستير مثلاً وغيرها¹ كما ذكروا الأحاديث التي تبين فضل أهل المغرب وبعض المدن مثل القيروان التي اختطها عقبة بن نافع وقال عنها مخاطباً أصحابه "أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة يجعل به عسكر، وتكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر"² وهذه تعد عند أهل المغرب المدينة المقدسة الرابعة بعد مكة والمدينة وبيت المقدس. والمكانة الوجدانية الروحية لهذه المدينة تظهر أكثر حين يتوجه الإنسان بالدعاء مناجياً خالقه، وبخاصة إن كان من شخص له ما له من المنزلة الأيمانية الربانية، وهذا شأن عقبة في دعائه على القيروان بقوله: "اللهم املاها علماً وفقهاً، واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك، وذلاً على من كفر، وأعز بها للإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض"³ وسيصبح هذا المكان انتماء وجدانياً، ومن ثم يتحول الارتباط بالمغرب كلية بعد أن كان في جدل مع المشرق، ويظهر أدب الحنين ببلاد المغرب على غرار ما أتى به عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري من شعر يحن فيه إلى القيروان، وهو آنذاك ببغداد:

ذكرت القيروان فهج شوقي وأين القيروان من لعراق⁴

وهكذا نلاحظ تحول المكان إلى بعد وجداني منتج لتجارب أدبية ذات نزعة إنسانية من منطلق المحلية، وهذه من أنصع الصور الأدبية التي تبقي على أطراف الانتماء الأدبي في حالة توتر بين أبعادها الوطنية والقومية والإسلامية والعالمية الأمر الذي يزيد من حيوية هذا الأدب وتميزه؛ وهذا ما نلاحظه في قول أحد الشعراء في مقرنته للقيروان ببغداد:⁵

عراق الشرق بغداد وهدي	عراق الغرب بينهما كثير
ولست أقيس بغداداً إليها	وكيف تقاس بالسنة الشهور؟
بلاد تقصف بالعظماء قصفا	إذ ما رامها منهم غدور
بلاد خطها أصحاب بدر	وتلك اختط ساحتها أمير

¹ - الملكي، رياض النفوس، ج 1 تحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي ط2 1414-1994 ص 5-9

² - المصدر نفسه، ص 10

³ - المصدر نفسه، ص 10

⁴ - المصدر نفسه ص 156.

⁵ - محمد اليعلاوي، الأدب بإفريقية، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 211.

فهل للقيروان وساكنيها عدل حين يفتخر الفخور
ويستمر الشاعر بهذا التغني بفضائل القيروان وأهلها، وكلها تصب في تميزها
بالتزام أهلها بالإسلام الصحيح في تفاعل حضاري أصيل.
وبهذه القداسة يتحول الحيز التراثي إلى أكثر من وطن جديد للعرب الفاتحين،
ويأخذ أبعادا من وجدانهم فيصبح مؤهلا ليكون إطارا حضاريا لأرقى التجارب
الإبداعية الأدبية.

2.1. البعد الحضاري التاريخي:

أما البعد الحضاري التاريخي لفترة ما بعد الفتح الإسلامي فإن أغلب المصادر
القديمة التي وصلتنا تجمع على أن فتح إفريقية لم يكن سهلا ميسورا، ولم يتم دفعة
واحدة، بل مر على الأقل بمرحلتين أساسيتين: مرحلة أولى تنحصر بين سنة 22 هـ
و50 هـ ولم يصلنا من أدبها غير رجز لعبد الله بن الزبير في ابنة جرجير وخطبة له
في المدينة يشرح فيها ما فتح الله لهم من أرض إفريقية¹، وبعض الأقوال والأخبار
والأدعية والخطب.

وما وصلنا من نصوص تشترك كلها في خصائصها اللغوية والأسلوبية
ولكنها تتفاوت في درجة مغربيته بحسب المعايير السابقة، ومن الخطب التي نراها
تفتقد إلى بعض المقومات المغربية تلك الخطبة التي ألقاها عبد الله بن الزبير في
المدينة أمام جمع من الصحابة رضوان الله عليهم بمناسبة فتح قسم من إفريقية،
وأمره عثمان أن يقوم خطيبا في مسجد رسول الله، حتى يسمع الناس بهذا الفتح
فاعتلى المنبر وقال:

"الحمد لله الذي ألف بيننا بعد الفرقة، وجعلنا متحابين بعد البغضة الذي لا
تجدد نعمائهم، ولا يزول ملكه، له الحمد كما حمد نفسه، وكما هو أهله، انتخب محمدا
واختاره لعلمه، وائتمنه على وحيه، واختار له من الناس أعوانا قذف في قلوبهم
تصديقه ومحبتهم، فأمنوا به، وعززوه، ووقروه وجاهدوا في الله حق جهاده، فاستشهد
الله منهم من استشهد، وبقي من بقي لا تأخذه في الله لومة لائم.

أيها الناس أرحمكم الله تعالى، إنا خرجنا للوجه الذي علمتم فكنا مع والحافظ
حفظ الله أمير المؤمنين فكان يسير بنا الأبردين، ويحفظ بنا الظهائر، ويتخذ الليل
جملا، يتعجل الرحيل إلى المنزل المقر، ويطيل اللبث من المنزل الخصب، فلم نزل
على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى إفريقية فنزلنا حيث يسمعون صهيل

¹ - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 22-26

الخيّل، ورغاء الإبل، وقعقة السلاح، فأقمنا أياما ننجم كرعنا، ونصلح سلاحنا، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه فابعدوا منه، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح فكانت أبعد، فأقمنا ثلاث عشرة ليلة ننظر بهم وتختلف رسلنا إليهم، فلما يئس منهم قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ثم نهض إلى عدوه فقاتلناهم يومنا ذلك، وصبر الفريقان، فكانت بيننا وبينهم مقتلة كبيرة [يريد المقتلة واقعة سببلة] واستشهد الله رجالا من المسلمين، فباتوا وبتنا وللمسلمين دوي كدوي النحل، وبات المشركون في ملاهيهم، وخمورهم، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا كالذي كنا عليه بالأمس فزحف بعضنا إلى البعض، فأفرغ الله علينا صبره، وأنزل علينا نصره، ففتحناها من آخر النهار، فأصبنا غنائم كثيرة، فتركت المسلمين قرت أعينهم وأغناهم النفل، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين أبشره وإياكم بما فتح الله تعالى من البلاد وأذل من الشرك، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه وما أحل على أعدائه من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين".¹

هذه الخطبة طويلة وهي تقرير عسكري، وتتضمن خطبة في خطبة، وتتناص مع الرسالة الشفوية، فهذا الثراء في تناص الأشكال النثرية وفي تركيبها النصية المتعددة (تقرير - أخبار - رسالة - خطبة في خطبة) يعد جانبا من البراعة في اصطناع ازدواجية الإبلاغ بين خطابيه وخطاب سعد بن أبي سرح في فتحه سببلة، كما أنها تحمل مؤشرا يؤكد حقائق التاريخ الأدبي المغربي بكون أي فتح يصاحبه نص خطابي.

وعرفت هذه الفترة عدة غزوات منها: الطلائع الأولى التي قادها عمرو بن العاص نفسه في الشمال بعد فتحه الإسكندرية، ووصل برقة وطرابلس، ومرم بالقبائل المنتشرة في هذه المنطقة، ومن أهمها قبيلة لواتة البربرية، وقد فرض عليها الجزية، كما تولوا رعاية أبنائهم الصغار، هذه العملية خدمت الدعوة الإسلامية والعربية، وهؤلاء سيصبحون من الرعيّل الأول المستعربين الذين ساهموا في نجاعة الخطاب الأدبي والديني بين آبائهم والعرب الفاتحين، بالإضافة إلى المصريين الذين لا يجهلون اللهجات البربرية وفي الوقت نفسه تمكنوا من امتلاك ناصية العربية بعد معاشرتهم الطويلة للعرب في مصر.

كما قام أيضا عقبة بن نافع بغزوة أخرى في جنوب ليبيا الحالية في الفترة نفسها، وقد وجد سهولة في فتح الصحراء، ووصل إلى زويلة، ثم برقة مرة أخرى،

¹ - حسن حسني عبد الوهاب، المنتخب المدرسي من الأدب التونسي، ط2، المطبعة الأميرية، القاهرة، ص8

واشتهرت برقة بحسن الطاعة حتى إن الأمر لم يكن يتطلب ذهاب الجباة إليها لتحصيل ما عليها من الأموال التي كانت تبعث بها إلى مصر وقت استحقاقها، وبلغ الاطمئنان والأمن في برقة إلى درجة جعلت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: "لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها".

ثم توالى فتوحات المدن المغربية الليبية، ففتحت طرابلس بمحض الصدف، ثم مصراتة ثم بقية الأقاليم الحصاروية في فزان¹.

وإذا كانت هذه الأقاليم والمدن قد تم فتحها دون مقاومة فإن التفكير في مواصلة الفتح غرباً نحو إفريقية أو ما يعرف الآن بالبلاد التونسية لم يكن عملية ميسورة كسابقاتها، ولم يكن أمام عمرو بن العاص خيار غير استئذان الخليفة عمر بن الخطاب الذي لم يوافق على مواصلة الفتح غرباً للحفاظ على قوة المسلمين في هذه الديار الإسلامية الجديدة.

وننتظر إتمام ذلك بعد تولي عثمان الخلافة ومن ثم تبدأ المرحلة الثانية للفتح من سنة 50 هـ إلى سنة 72 هـ، ويعزل عثمان عمرو بن العاص ويولي مكانه عبد الله بن سرح الذي أذن له من جديد في غزو إفريقية، ويورد المالكي في رياض النفوس القصة الكاملة لهذا الحدث فيقول: "لما عزل عمرو بن العاص من مصر... وولي مكانه عبد الله بن سرح سنة (25هـ) بعث المسلمين في جرائد النخيل كما كانوا يعملون في ولاية عمرو فأصابوا من أطراف إفريقية، وغنموا، فجاءوا بالغنائم إلى عبد الله فكتب إلى عثمان يخبره بما نال المسلمون من عدوهم، ويروى أن عثمان استخار الله في غزوه لإفريقية، وشارور أصحابه، فأجمعوا على الغزو... وقام فخطب في الناس، وندبهم إلى الغزو... فخرج جماعة من الصحابة بينهم عبد الله بن الزبير، وأبو ذر الغفاري، وابن عباس، ومسور بن زهرة، ومقداد بن الأسود، وعبد يغوث، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعبد الرحمن بن صبيحة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وأخواه عبيد الله وعاصم، وعبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن السائب، والشايب بن عامر بن هشام، وبشر بن أرطأة، ومع كل واحد منهم جماعة من قومه"²، وكانت هذه الغزوة تدعى "غزوة العبادلة". ثم توالى الفتوحات لأقاليم المغرب الأخرى، إذ

¹ - سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي ج1 ص132 - 137

² - المالكي، رياض النفوس، تحقيق بشير اليكوش ومحمد لعروسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 ن1414هـ-1994م ص97/1

استطاع عقبة بن نافع أن يفتح إفريقية من جديد سنة (46هـ)، ثم بنى القيروان سنة (50 هـ)، وواصل فتح الأقاليم الغربية إلى أن استشهد في سيدي عقبة سنة 63 هـ. وفي سنة (86 هـ) تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ففضل فصل إفريقية وسائر المغرب عن ولاية مصر، وولي عليها موسى بن نصير، وكان آنذاك قد فرغ من فتح المغرب كله في سنة 72 هـ، ثم شرع في فتح الأندلس سنة (92هـ). وبعد هذه الرحلة التاريخية التي اختزلت مراحل، وتجاوزت حقبا وأزمانا يمكننا مع ذلك تقريراً بعض الحقائق:

أ - إن المغرب تشكل تشكلا حضاريا نهائيا بعد الفتح الإسلامي، وتوحد في مقوماته التاريخية والدينية واللغوية والثقافية.

ب - إن المغرب ارتبط بالنسق الحضاري المشرقي بمعناه الواسع العربي وغير العربي، ولهذا كان تأثره بالنسق الحضاري الغربي محدودا على الرغم من طبيعة الجوار التي تصل في بعض الأحيان إلى حد التداخل بين أداء الحضارتين.

2.1 - البعد الحضاري الإنساني:

لا يخفى دور الإنسان المغربي مميزات شخصيته في تشكيل ملامح الأدب المغربي، ولا يشك أي باحث في حقيقة التلازم بين شخصية الإنسان المغربي وملامح أدبه وهذه الجدلية بينهما طبيعية لأنه لا يمكن تصور استقلال ماهية الأدب وخصائصه عن ماهية أصحابه أو بيئته المكانية التي تنفس فيها، لأن قدرا من روح هذا الإنسان وفلسفته ستبقى هي المشكل الأساسي لمقوماته الفكرية والروحية والفنية، والإنسان في أي فترة تاريخية هو مصدر لكل العبقريات الحضارية والأدبية، وتاريخ أي نص أدبي هو استمرار لتجارب الأمة منذ تاريخها السحيق، ولإشعاعاتها الفكرية والفنية.

وإذا كان الفضاء المكاني الجديد نسخة من الموطن الأصلي لهذا الأدب، فإن الأنساق الثقافية في البيئة الجديدة وجمالياتها والشخصيات المنتجة لها لا تكون غريبة عما هي عليه في البيئة الأصلية، وهذه النتيجة تعكس ذلك التحول العظيم الذي عاشه المغرب لينسجم مع الواقع الجديد وما يحمله من مقومات عقائدية وحضارية وجمالية.

وفي الحقيقة فإن الملامح الصافية الناصعة للأدب المغربي وشخصياته يثير فينا إعجابا لهذا التزاوج السريع بين مكونات البيئة الجديدة والإنسان المغربي من جهة، وبين العرب الفاتحين وأدبهم من جهة أخرى، الأمر الذي جعل بعض

المؤرخين يرجعون الصورة الثرية الناصعة لهذه البيئة قبل الفتح الإسلامي وبعده إلى تركيبته البشرية المتعددة المنتمية لثقافات وحضارات وأديان متباينة ومنها في رأيهم ثلاث مجموعات كبرى هي:¹

المجموعة الأولى: وهي أكبر المجموعات وتعد كل المجموعات الأخرى إلى جانبها مجرد أقليات شأن أي أمة متحضرة تستقطب مجموعات بشرية إلى كيانها بتجربتها الثقافية المختلفة الأمر الذي ينجر عنه تعدد في الثقافات والتركيبية البشرية المبدعة لها.

وعرفت المجموعة الأولى عند المؤرخين باسم "البربر" لكنهم يرفضون هذه التسمية التي تحمل تمييز الآخر المخالف واحتقاره إلى حد التعصب السلالي والثقافي العنصري، ويسمون أنفسهم (إيمازيغ) أي الأحرار، وينعتون وطنهم ببلاد (إمازيغن) أي الوطن الحر.

والمنتبغ لتاريخ تسمية "البربر" يجدها قد أطلقت على الأقل بأربع إطلاقات في أربعة عهود مختلفة، أطلقت في عهد (هومير) على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت.

وأطلقت في عهد (هيرودوت) على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم، وأطلقت في عهد (بلتوس) على ماعدا سكان روما، وأطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى.

وقد تغير الوضع بعد الفتح الإسلامي، إذ ذكر ابن خلدون² أن إفريقية كلها إلى طرابلس كانت ديار لنفزاوة، وبني يفرن، ونفوسة، ومن لا يحصى من قبائل البربر، وكانت هذه المنطقة في عهد ابن خلدون مجالا للعرب من بني سليم... وبني يفرن وهوارة، وقد تبدوا معهم، ونسوا رطانة الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب وسكان المدر» أي البيوت.

كما أن المؤرخ الفرنسي (جوتتيه) حاول تفسير هذا بانقسامهم إلى جماعة (البتن)، وجماعة (البرانس)، وهكذا يكون البتر عنده هم أصحاب البداوة والرحل، والبرانس هم أهل الحضارة والاستقرار.

¹ - محمد البشير شنيقي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 258

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والعبر، 87/62، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 85.

كما يقسم المغرب القديم إلى نوميديين (أي جزائريين)، وموريطانيين (أي مراكشيين)، ويقسم السكان بعد ذلك إلى عرب، وقبائل.

ونترك الآن هذه التقسيمات الخاصة بتركيبة سكان المغرب القبلية وتوزيعها الجغرافي ونمطها الحضاري، وحساسيتها الأدبية لنقف عند تحديد أصول سكان المغرب الأمازيغ.

وينقل ابن خلدون أن بعض الروايات التاريخية ترجع أصولهم إلى "...ولد كنعان بن حام بن نوح، وأن اسم أبيهم، مازيغ...".

ثم نقل أيضا في معرض كلامه عن أصول "البربر" عن جمهرة الأنساب لابن حزم حيث يورد أقوالا ترجع نسبهم إلى "اليمن ومن حمير، وبعضهم ينسبهم إلى برد بن قيس عيلان..."، ويزعم ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت، وأن جالوت من ولد قيس عيلان.

ثم يعلق ابن خلدون فيقول: "ولا خلاف بين نسابة العرب بأن شعوب البربر كلهم من البربر إلا صناهجة وكتامة، فإن بين نسابة العرب خلافا بينهم، والمشهور أنهم من اليمنية، وأن إفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها... ويختتم كلامه بقوله: "إن أمة العرب لم يكن لها إمام بالمغرب لا في جاهلية ولا في إسلام، لأن البربر يمانعون عليه الأمم، وقد غزاه إفريقش بن صيفي، الذي سميت إفريقية من ملوك التبابعة، وملكها، ثم رجع عنها، وترك كتامة وصناهجة من قبائل حمير، فاستحالت طبيعتهم إلى البربر، واندمجوا في أعدادهم، وذهب ملك العرب منهم".

لكن هناك من نسابة البربر من يزعم كما يقول ابن خلدون: "أن لواتة من حمير، وهوارة من كندة... وزناتة من التبابعة أو العمالقة... وفروا أمام بني إسرائيل... كما أن غمارة، وزواوة، ومكلاته من حمير".¹

وقد تضمن المغرب أقليات أخرى بديانات وثقافات مغايرة للمجموعة الكبرى الأولى، ومنها الأفارقة وهم أقليات، ويعدون من أهل البلاد الذين اختلطوا بالروم فأصبحوا من المولدين، ودخلوا في خدمتهم، وانصبغوا بالحضارة الرومانية، كما اعتنقوا الديانة المسيحية، ويتقنون اللغة اللاتينية ويكتبون بها أدبهم وفكرهم.

ثم يأتي بعدهم السوريون واليهود، وقد وجدت هذه الجالية طريقها إلى المغرب منذ هجرة الفينيقيين إلى السواحل الإفريقية، وهي تمزج في لغتها بين لسانها

1- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، 2:6، ص89، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص86.

واللسان المحلي واللاتيني وهي مؤثرة أكثر في الحياة الاقتصادية وهذا ما أنتج عنه ملامح متميزة تخص الحياة الثقافية والأدبية. ثم تأتي بعد ذلك أقلية أخرى يطلق عليها "السودان"، وهم يتكونون من الذين هاجروا إلى المغرب من الحبشة، وبلاد السودان، وهذه الجالية تذوب في السكان الأصليين ولا تشكل مجموعة متميزة بلسانها وأدبها وثقافتها. وانضاف إلى هذه العناصر السكانية عنصر جديد فعال يحمل مشروعا حضاريا متكاملًا يتمثل في العرب الفاتحين، وما انصهر معهم من الفرس والأتراك والمصريين والروم، بالإضافة إلى زحف بني هلال وبني رياح وبني سليم التي غيرت تركيبة السكان تغييرا جذريا وأثرت في حياتهم الثقافية، وكثير ما كان النسب وفلسفة القوة هي جوهر الانتماء لروح حضارية لا تعترف إلا بامتلاك أسباب التسلط يقول أبو العباس الأغلبي:¹

ليس أبي وجدي أوطاني وجد أبي وعماي لرقابا
ورثت الملك والسلطان عنهم فصرت أعز من وطئ الترابا
إلى أن يقول:

أنا الملك الذي أسمو بنفسي فأبلغ بالسمو بها السحابا
إذا نقبت عن كرمي ومجدي وجدتني المصاصة واللبابا
أنا الملك الذي أيدت ملكي بسيفي إذ كشفت به الضبابا

وفي مقابل ذلك نجد تيارا شعريا ونثريا يتجاوز الانتماء ليزوب في صوفية علوية مثالية لا تعترف بالمشاهد والمحسوس حتى ولو كانت أوطانا وأنسابا وسلطانا.

وربما أكبر تيار يعكس الشخصية المغربية هو الاستعداد الدائم للثورة؛ وربما هذا مايفسر كثرة الشعر التحريضي على الثورة والعصيان متى أحس بالظلم في أي صورة من الصور.

1.3 - البعد الحضاري الديني والاجتماعي:

كانت ديانات المغاربة قبل الفتح الإسلامي المشهورة هي: الوثنية، والمجوسية، وهيرودت يخبرنا في نصوصه التاريخية بأن الليبيين القدامى عبدوا الشمس والقمر،

¹ - حسن حسني عبد الوهاب، المنتخب المدرسي من الأدب التونسي، ط بولاق، مصر، 1944، ص 23

وكانوا يقدمون لهما القرابين والضحايا، كما أن بعض القبائل الأخرى كانت تعبد آلهة الإغريق أثينا، وبعد اختلاطهم بالفينيقيين اعتنقوا ديانتهم الكنعانية¹. وربما كان لهذه التأثيرات دورها في ربط المغرب بالشرق قديما أو أنها حافظت على تواصل هذه الصلة منذ فجر التاريخ وثبتها الفاتحون العرب تحت راية الإسلام².

أما الديانة اليهودية فقد عرفت طريقها بعد هجرة الجاليات اليهودية منذ عهد الفينيقيين، وبعدهم الرومان³ ثم إن انتشار اليهودية عبر مناطق البحر المتوسط مرتبط تاريخيا بأحداث التاريخ اليهودي، خاصة منها حروب الاضطهاد والطرده التي مارستها الدول الكبرى ضد اليهود، مثل الضغط الروماني، الذي أرغمهم في عدة مناسبات على ترك ديارهم، ومنها ما فعله بهم القائد تيتوس خلال سنوات 66-70م، وفي عهد تراجانوس بين سنتي 115-117م، وخلال عهد هادريانوس بين عامي 132-135م، وذكر التلمود بعض الحاخاميين في قرطاجة، مما يدل على أنهم كانوا هناك خلال القرن الثاني بعد الميلاد على أقل تقدير، ذلك أن التلمود لم تدون نصوصه الأولى سوى في القرن الثالث من طرف الحاخام يوحنا.

أما النصوص الأدبية المتعلقة بالطائفة اليهودية في إفريقية فأشهرها نص ترتوليانس (Tertulians) الذي اتهم فيه صاحبه يهود إفريقية بأنهم تسببوا في إثارة حركة الاضطهاد ضد المسيحيين بتعريضهم للوثنيين عليهم، وهو ما يؤكد صفة اليعاز المتأصلة في اليهود منذ القدم³ أما المسيحية وانتشارها في المغرب، فقد أرجعها بعضهم إلى زمن متقدم وربما ارتبط بانتشار حواري عيسى عليه السلام، ولكن الفضل الأكبر يرجع إلى التجار القادمين من مدن سواحل المتوسط، كما أن معابد اليهود كانت المراكز الأولى التي احتضنت حركة التنصير.

وحكاية تنصير المغرب طويلة، ولكننا سنشير فقط إلى الحركة الدوناطية نسبة إلى أحد أعلامها الكبار الذي حمل راية الرفض للخضوع لإرادة الإمبراطور ومقاومة أساقفة كنيسة قرطاجة الذين رضوا بالانطواء تحت لواء الدولة وقبلوا شروطها، تلك الشروط التي رأى فيها دوناتوس (Donatus) نيلا شديدا من مبادئ المسيح، وتحطيم لقوة المؤمنين المخلصين بالنصرانية، وهذا الانقسام هو صورة

¹ - محمد البشير شنييتي، التغيير الاقتصادي والاجتماعي في المغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، - الجزائر، 1984، ص258

² - المرجع نفسه ص197.

³ - محمد البشير شنييتي، التغيير الاقتصادي والاجتماعي في المغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، - الجزائر، 1984، ص199

للانقسام السياسي والاجتماعي بين الموالين للسلطة والرافضين لها، وبين الفقراء والأغنياء".¹

ونشير إلى بعض الحقائق التي تجمع بين الحياة الروحية والفكرية والسياسية والاجتماعية الأدبية للمغاربة ومنها:

1 - أن منطقة المغرب كانت منذ القدم ملتقى لحضارات وثقافات وديانات العالم القديم، فهي المعبر للتجارب الثقافية بين مشرق هذا العالم ومغربه، كما كانت أيضا الممر الذي يجمع بين تجربة الإنسان الإفريقي، وتجربة الإنسان المتوسطي الأوروبي، وبهذا الموقع وبهذه المركزية كان مؤهلا لأن يكون موطنًا لتفاعل الحضارات والثقافات والأفكار والأذواق والأمزجة.

وهذا التفاعل لم يكن سطحيا بل كان يتم برهافة حس، وبعمق فكر، وبعد نظر، ويقظة وعي ونبض إنساني، وتقبل الآخر، ومع هذا الثراء المتعدد فإن المغربي لم يتخل عن هويته الحقيقية الأصيلة، وخصوصيته المتميزة المتفردة، وهذا ما جعله لا يؤدي دور الناقل للتجارب واستنساخها، الأمر الذي قوى وجوده الحضاري وأبعده على أن يكون نسخا مشوهة، ولكنه كيانا متكاملًا لا يفقد ديناميكيته في حركة التاريخ العالمي، وما فيه من صراع وهيمنة.

2 - إن دور المغاربة في هذه المنطقة كثيرا ما تجاوزا مرحلة التلمذة إلى مرحلة الأستاذية للبشرية جمعاء، وهذا ما تثبتته شخصية أبوليوس بكونه أول روائي عالمي، وشخصية القديس أوغسطين بوصفه صاحب أول إبداع في السيرة الذاتية، وحازم القرطاجني تجاوز النقاد العرب في كتابه منهاج البلغاء، وابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع، فهذه الشخصيات ورياداتها العالمية في فنون وعلوم تؤكد بما لا يدع مجالا للتردد والشك بأن المغاربة لم يكونوا مجرد نقلة لتجارب الحضارة الإنسانية بل كثيرا ما كانوا في موقع الأستاذية للبشرية قاطبة.

3 - إن المغرب في مراحل تشكل ملامحه الفكرية بعد الفتح الإسلامي لم يكن أبدا معزولا عن المشرق في حياته الفكرية والأدبية والسياسية، إذ نجد المذاهب والفرق والحركات السياسية في مراحل نشأتها في المشرق تمتد مباشرة إلى المغرب وتتجسد فيه تجسيدا واقعيا في كيانات سياسية مذهبية قد تتجاوز المغرب نفسه، وتجد سندا لها في أدب يتسم بجذلية من الطراز الأول بين النسق الفني والرؤية العقائدية لهذه المذاهب، ويبدو خاصة في ازدهار فن المناظرات.

¹ - محمد البشير شنييتي، التغيير الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، ص 290.

وهكذا عرف المغرب منذ القرن الثاني الهجري فن المناظرات السياسية المذهبية والعقائدية وكلها تطمح إلى تجسيد خلفيتها لأيمانية في دول، وأهم هذه المناظرات كانت بين مذهب الخوارج بفرعيه الإباضي والصفري والواصلية، ثم بين المذاهب الفقهية ومنها: المذهب الحنفي والمالكي، ثم بين السنة والشيعة التي جسدت عقيدتها في دولة ظهرت في المغرب ثم امتدت إلى المشرق.

ويذكر الذين أرخوا للحياة العقلية للمغرب أن الصراع كان على أشده بين الأحناف وهم أصحاب رأي وبين المالكيين، وهم أصحاب نقل، يقول ابن فرحون في كتابه (الديباج المذهب): "وغلّب مذهب أبي حنيفة رحمه الله على الكوفة والعراق وما وراء النهر وكثير من بلاد خراسان إلى وقتنا هذا، وظهر بإفريقية ظهورا كثيرا إلى قريب من أربعمئة عام، فانقطع عنها"¹.

ويصف المقدسي هذا الصراع بين المذهبيين. في كتابه (أحسن التقاسيم) فيقول: "ما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل تعصبا من أهل القيروان، وسمعتهم يحكون عن قدمائهم حكايات عجيبة، حتى قالوا إنه كان القاضي سنة حنيفيا وسنة مالكا"². أما عن فرق الكلام فيورد الجاحظ قصيدة لصفوان الأنصاري شاعر المعتزلة يمدح بها واصل بن عطاء، وجاء فيها ذكر امتداد دعوتهم إلى المغرب.³(الطويل):

له خلف شعب الصين في كل ثغرة	إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفلّ عزيمهم	تهكم جبار ولا كيد ماكر
يصيبون فضل القول في كل منطق	كما طبقت في العظم مدية جازر

ويذكر البكري أن حركة الواصلية في الدولة الرستمية المغربية بلغت من النفوذ والعدد الذي يصل إلى ثلاثين ألفا يسكنون "في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها"⁴.

ويذكر أيضا صاحب كتاب "سير الأئمة وأخبارهم" أن قوتهم ونفوذهم في تيهرت بلغت حدا أصبحت تهدد به كيان الدولة الرستمية، فكانت الحرب بينهم وبين

¹ - محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، لدار النهضة العربية ن بيروت (دب) ص 71.

² - المرجع نفسه، ص 73.

³ - الجاحظ، البيان والتبيين، المجلد الأول، دار التراث العربي، بيروت-لبنان، ص 22.

⁴ - محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، ص 73.

الإمام عبد الوهاب وللحرب مع المعتزلة طقوسها الخاصة فقد تبدأ بالمناظرة وتنتهي بالقتال.¹

عاش المغرب محنة خلق القرآن بعد أن تبنى إبراهيم بن أحمد الأغلب مبدأ خلق القرآن أسوة بالخلافة العباسية في المشرق، وفرض على العلماء القول بخلق القرآن؛ ومنهم سحنون الذي هرب من قبضة هذا الأمير، وبقي متخفياً عند أحد العباد والزهاد في قصر زياد" إلى أن توفي هذا الأمير فانزاحت هذه الكربة عن المغرب".²

أما في العهد العبيدي فقد عرفت الحياة العقلية نشاطاً أكثر وتركت لنا مناظرات بين السنين والشييعيين وأشهرها، مناظرة سعيد بن الحداد.³ وإذا استثنينا الأدب الشيعي الذي كان صورة صادقة دقيقة ومفصلة لأفكار الشيعة ومعتقداتهم وفقهم السياسي ومصادرهم الفلسفية، وبخاصة فكر إخوان الصفا، فإننا في مقابل ذلك نجد تأثير أفكار المذاهب الأخرى في الأدب محدودة بالقياس إلى الصورة التي كانت عليها في المشرق.

4.1 - البعد الحضاري الفني:

النموذج الأول من التكامل يكشف عن نوع آخر من التواصل الشعري بين حقلين فنيين: حقل الغناء وحقل الشعر، والمغنون في الغالب يؤدون وظيفة النقاد باستحان أشعار واستهجان أخرى، وبخاصة منهم من يركزون على جانب الأداء الشعري المناسب للأنشاد والغناء، ويعني ذلك فهم يتذوقون الأشعار التي تتضمن أنغام إيقاعاتها ألحاناً معينة، وهذا يشكل تواصلاً بين عالم الفنون، كما يشي في الوقت نفسه بأن التطور الأدبي والحضاري بلغ مستوى من التكامل بين هذا الكل الفني المتجاوب في كثير من جوانبه الفنية، ونورد قصة وقعت في القرن الثالث الهجري بين أمير وأكبر شاعر في تلك الفترة والجواري المعنيات، إذ جاء في الحلة السيرة: "إن بكر بن حماد التاهرتي كان ينتجع هذا الطاغية (يقصد الأمير إبراهيم بن أبي إبراهيم ابن أحمد الأغلب) ويمدحه، فغدا يوماً، بمديح له على "بلاغ" الخادم فقال له: "الأمير عنا مشغول في هذا اليوم"، فقال: "فالطف بي في إيصال رقعة إليه"،

1 - أبي زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص 101.

2 - المالكي، رياض النفوس، ج 1 تحقيق بشير اليكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1414-1994، 421/1.

3 - المالكي، رياض النفوس، 96-76/2.

قال: "إنه مضطجع في الجنان مع الجواري، ولا يصل إليه أحد" فكتب بكر في رقعة، واحتال "بلاغ" في توصيلها مساعدة له، وفيها أبيات منها: (الطويل)

خلق الغواني بلية فهن موالينا ونحن عبيدها
إذا ما أردنا الورد في غير حينه أتتنا به في كل حين خدودها
وكتب تحت الأبيات: (الوافر)

فإن تكن الوسائل أعوزتني فإن وسائل ورد الخدود
فلما قرأها أنشدها الجواري، فأظهرن له سرورا بها وشفعن إليه إلى أن خرج
بصرة فيها مائة دينار، ووصل منه إلى بكر مال عظيم.¹

فهذه القصة تكشف عن كيفية تواصل النص الشعري في محيط الملوك والقصور، وكأن وظيفة الشعر هي كسر الحواجز التي تمنعه من الوصول إلى هذه الأجواء التي يبدو أن الشعراء يروقه أن تتنفس فيها، كما تكشف لنا هذه القصة أيضا عن الأطراف التي تستقبل النص الشعري، ومنهم المغنيات من الجواري التي تستحسن نصوصا وتستقبح أخرى، فهذا التواصل بين الفنون والتكامل بينها هي دليل آخر على وصول الأمة إلى مستوى حضاري وثقافي معين.

ولعل أقرب الفنون إلى الشعر هما: الموسيقى والرسم، وما زال الشعراء يحاولون رسم ألواح بالفاظ ينافسون بها الرسامين، وقد قيل منذ القدم: "أن الشعر رسم ناطق"، وقال الجاحظ: "الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير".² كما حاول الشعراء أن يجعلوا قصائدهم سنفونيات وقطعا موسيقية، وعلى العموم فإن الشعر الغنائي كبر وترعرع في أجواء الحداثة والغناء والعزف على آلات موسيقية سواء كانت بسيطة أو معقدة، والشعر لن يتطور إلا في هذا التكامل بين الفنون كلها وبخاصة فن الموسيقى والرسم.

أما عن دور الموسيقى في تطور جوانب الأداء الغنائية، فقد عقد حسن حسني عبد الوهاب فصلا للموسيقى في إفريقية قبل الإسلام وبعده، فهو يرى أن الموسيقى عند السكان المحليين كانت بسيطة "فالأمم البربرية ليس لها من الأدوات إلا مزمار وهي (الشبابة) تتخذ في الغالب من القصب، أو نوع من الرباب ذي وترين لا غير، وهو عين ما يوجد عند الزنوج البدائيين، وهذا من أكبر الشواهد على تأخر التلحين عندهم".³

1 - ابن الأثير، الحلة السيرة، ج1، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف بمصر، ط2، 1985، ص173-174.

2 - الجاحظ، الحيوان، ج3، تحقيق، عبد السلام هارون، مصطفى الباي الحلي، القاهرة، 1948، ص131-132.

3 - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، القسم الثاني، ص173

كما يرى حسن حسني عبد الوهاب أن العرب أدخلوا إلى إفريقية طريقهم في الحداء منذ القرن الأول وصدر الثاني، "فلقنها عنهم أبناؤهم، وكذا أبناء مسلمة البربر، فصاروا يرجعون الأصوات بأبيات من شعر الجاهليين أو المخضرمين، ومن الحظ الكبير أن دلنا مؤلف تونسي قديم¹ على نوع الأبيات التي كان يترنم بها في ذلك العصر السالف، وإليك البعض منها:

صوت (طويل):

أشار بتوديع إلي بنانها إشارة محزون ولم تتكلم

صوت (كامل):

يا أم طلحة والديار بعيدة والنجم من غفلات قومك أقرب

صوت (طويل):

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الفؤادي مطيرها

صوت (سريع):

عهدي بها في الحي قد جردت بيضاء مثل المهرة الضامر

صوت (طويل):

صحا القلب عن سلمى وأقفر باطله وعري أفراس الصبا ورواحلها

صوت (طويل):

وكننت إذا ما زرت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

صوت (كامل):

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني علق بقلبي من هواك قديم

صوت (طويل):

تجول خلاخيل النساء ولا أرى برملة خلخالاً يجول ولا قلباً

صوت (كامل):

عج بالمطي على الكثيب من الحمى وبلعلع حط الركاب مخيما

¹ - هو: أحمد ابن يوسف التيفاشي الإفريقي المتوفي سنة 651هـ/1253م وضع كتاباً جليلاً جداً في فن الموسيقى والرقص أسماه متعة الأسماع في علم الأسماع، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية، القسم الثاني، الهامس، ص173.

وظل أبناء إفريقية من عرب وبربر يرددون تلك الأصوات وأضرابها ويحدون بها في فترة ما بين استقرار السلطة الأموية وبين ظهور دولة بني العباس¹.

وهكذا نلاحظ بأن مرحلة التأسيس يسود فيها تداول النص الأصلي تداولاً يقتصر على الوظيفة الغنائية، وهي ألصق بالاستمتاع الانفعالي، وأبعد ما تكون عن الاستمتاع التأملي الذي يتطلب تلقينا من نوع خاص هو من منتوج حضاري. ونلاحظ أن أغلب هذه النصوص التي كانت ذات وظيفة أدائية في تواصلها ترجع في أوزانها العروضية إلى ثلاثة بحور هي الطويل تكرر خمس مرات والكامل ثلاث مرات والسريع مرة واحدة.

ويختار المغنون هذه البحور المشهورة ويستعذبها الناس ويترنمون بها في حياتهم الخاصة والعامة، وهذا من شأنه أن يزيد من ترسيخ ألحانها في الذاكرة الجماعية، ويخلق تذوقاً عاماً لها، فتفرض نفسها على إبداعاتهم الشعرية.

أما في الدورة الثانية فإن المغرب اطلع على تقدم فن الغناء في المشرق وبخاصة في العراق، وفي هذه الأونة قدم عليهم رئيس المغنيين (زرياب، علي ابن نافع) في طريقه إلى قرطبة وكان ذلك في أواخر سنة 205 فنزل بأهله وحشمه بالعاصمة الإفريقية، وعلم زيادة الله الأول بمقدمه فاستدعاه وأدناه واستضافه أشهراً في أحد قصور (العباسية) وتمتع هو وحاشيته بألحانه الفنية وإيقاعه البديع، وكان خروجه من القيروان في خلال سنة (206هـ) ولا يبعد في تلك الفترة أن يكون بعض فتيان الأمير وجواريه قد أخذوا عن زرياب².

والاستماع بالغناء يتجاوز أوساطه إلى العلماء والفقهاء، ويعني ذلك أن هناك روحاً عامة بدت تسري في المغرب وتغير الطابع، وتقترب أكثر إلى هذه المتعة الفنية التي لا يتذوقها إلا من كانت لهم حساسية فنية خاصة تتميز برقة المشاعر ورقي الطابع في قيم حضارية جديدة تتجاوز في بعض الأحيان حتى منطق الفقهاء، وهذا ما يفسر هذه القصة التي وقعت لأحد الفقهاء مع المغني المشهور أبي الشرف قال التيجيبي رواية عن أبي شرف: "أصبحت يوماً مع بعض إخواني في الربض المعروف بالبقرية، فبينما أنا أغني وأرفع صوتي عند بعض أصحابي، إذ قرع علينا الباب، فخرج صاحب المحل، وإذا بالشيخ (أحمد بن معتب) الفقيه قال: "أردت أن

¹ - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية، القسم الثاني، ص 173-175.

² - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية، القسم الثاني، ص 178-179.

أدخل عليكم"، فاستحى منه صاحب الدار واعتذر إليه، ولما ألح عليه سبقه صاحب المحل وغيب ما كان تحت أيدينا من الآلة والشراب، ثم أذن له فدخل علينا وسلم وسأل: "من كان منكم يقول؟ فأشير إلى أبي شرف، فقال له الشيخ: سألتك بالله إلا أعدت الأبيات، فأنشد أبو شرف:

العفو أولى بمن دانت له القدر لا سيما العفو عن ليس ينتصر (بسيط)
أقر بالذنب إجلالا لسيده فقام بين يديه، وهو يعتذر

فتأثر الشيخ مما سمع حتى بكى... إلى آخر الحكاية¹
ولكن هناك رواية أخرى للمالكي عن ابن اللباد الفقيه وغيره من الرواة عن سبب موته أنه حضر مجلس الذكر "بمحلة المرضى" وكان له بكاء ونوح، وكان القراء إذا علموا أنه جاء تحركوا له وأقروا وعرّفوا له بالحزن.
فلما كان يوم السبت(*) حضر جماعة [من القراء]، وذكر غير ابن اللباد: أنه مر في ذلك اليوم قبل دخوله المسجد بموضع فسمع قائلا يقول: (ونكر الأبيات السابقة في رواية التجيبي)، فبكى وخشع ودعا للقائل وللذين حضروا، فانتفعوا بدعائه، ثم تمالى أحمد بن معتب، فدخل المسجد فسمع بعض القوالين يقول: (الوافر)

دع الدنيا لمن جهل الصوابا فقد خسر المحب لها وخابا
وما الدنيا، وإن راقتك، إلا كبلقة رأيت بها سرايا
قال ابن اللباد، فلما انتهى منها إلى قوله:
يظل نهاره يبكي يشجو ويطوي الليل بالأحزان دابا

تحرك وبكى، قال: ثم قرأ القارئ آيات من القرآن، فخر صعقا، فاحتمل إلى داره فلم يزل منازعا إلى مغيب الشمس، فتوفي بعد العشاء الآخرة، رحمه الله تعالى.²

¹ - يعد من كبار المغنين للقرن الثالث الهجري، ومنهم أيضا (قاسم الجوعي) ويوجد في تلك الفترة حي خاص بالقيروان للملاهي والطرب، يألوه الشباب وأهل الخلاعة، وهو الحي المعروف بربض (البقرية)، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة المغربية، القسم الثاني، ص183.

(*) - يؤدي القوالون هذه الأشعار في مسجد السبت بالقيروان، الدباغ، معالم الأيمان 159/2.

² - المالكي، رياض النفوس، 472-471/1.

وكيفما كانت القصة سواء بحسب الرواية الأولى، وإن كانت تبدو غريبة، وإليها مال حسن حسني عبد الوهاب، أم بحسب القصة الثانية التي هي أقرب إلى الصواب فإن الروائيتين تؤكدان حقيقة أساسية هي تداول الأشعار بطريقة الأداء، وهذا من شأنه أن يساعد على تنوع الأداءات، ومن ثم ظهور الخصائص العامة والنوعية لموسيقى هذه الأشعار بالإضافة إلى تجاوز المكونات العروضية التي تحافظ على الطابع العام للإيقاع ولكن الأداء ينوع من جوانبها الميلودية أكثر من العروض الخليلي فهي تستغل كل ما في النص من مواقع إيقاعية نبرية وتنغيمية وجرسية للأصوات والألفاظ والتراكيب.

أما فن الغناء والموسيقى فقد وصل إلى الفاطميين بعد أن طوره مؤنس في آخر أيام الأغلبة وأدخل فيه الطريقة المشرقية وعلم جيلا من المغنيين والمغنيات، وما يلاحظ أن الأشعار القصيرة الوزن بدأت تنافس الأشعار الطويلة، ويقال أن زيادة الله إذا غلب عليه هم أخبار الشيعي أخذ حاشيته، واتجه إلى قصر البحر وفي أحد المرات دخلت عليه جارية ممن تعلمن على مؤنس فغنته وقد ضمت العود إلى صدرها: (مجزوء الكامل)

اصبر لدهر نال منـ
فرح وحزن مرة
ك فـهكذا مضت الدهور
لا حزن دام ولا سرور

وهذا المغنى انضم إلى خدمة عبيد الله المهدي في قصور رقادة، ولا شك أنه طور فن الغناء في هذا العهد أيضا.¹

ويلاحظ أن المتداولين للأشعار بدأوا يستعذبون الأشعار القصيرة الأوزان كالبيتين السابقين وهما من مجزوء الكامل إلى جانب البحور الطويلة الأوزان، ويعني ذلك تأثير الأداء الفني والموسيقى في تغيير أذواق الناس.

يقول حسن حسني عبد الوهاب عن مؤنس هذا: (قضى من عمره ثلاثين حولا في التطريب والتدريس، والتلقين، والإنتاج، ولم يقتنع بإيقاع ما تعلم في صغره في المشرق، بل طالما لحن أغان مخترة، وأهازيج مبتدعة، على أشعار الأدباء الوطنيين في الغزل، والنسيب والحماس، لاسيما ما كان منها من أقوال الأمراء والوزراء مثل عبد الحميد الصائغ).²

¹ - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات الحضارة العربية بإفريقية، القسم الثاني، ص197.

² - لمصدر نفسه، ص199.

ثم يعود مرة أخرى فيقرر بأن "هؤلاء المنشدين والمغنيين أصحاب الأصوات الشجية المستوية كانوا كثيرين في خلال القرن الثالث والرابع".¹

فهذا التطور الفني المتكامل يدل على تغير الأحاسيس وتطور الأذواق والاتجاه بها نحو الجمالي في النغم والكلمة والرسم، فالشعر والموسيقى والرسم من الفنون التي تتكامل، والشعر يجمعهما فيتناص مع هذا الفن وذلك، وحتى الفنون الأخرى تتقاطع في مضمونها، وربما أحسن ما يمثل هذا التناص والتقاطع تلك الألواح الخشبية التي احتفظ بها متحف القاهرة، وتشتمل على "مناظر منقوشة فيها رسوم مطربين ومطربات وعازفات على آلات موسيقية وراقصين وراقصات، ورأيتم الأمير جالسا على أريكة وفي يده اليمنى كأس، وفي اليسرى زهرة، وعلى رأسه عمامة. وإلى يساره الساقى يصب الخمر في كأس، وإلى يمينه تابع يقدم إليه صينية ذات غطاء... الخ".²

وقد روي لنا قصصا عن التواصل الفني بين المشرق والمغرب وبخاصة من العراق مركز الخلافة والثقافة والفن في تلك الفترة.

هذا التواصل أدخل أذواق جديدة أو رسخها ومن الحكايات التي تروى عن هذا الجانب حضور أحد العراقيين في مجلس غناء وطرب للحاجب عبد الوهاب في عهد الخلافة الفاطمية، فلما سكتوا أخذ في الغناء لهذه المقطوعة:

ألا يا دار ما الهجر	لسكانك من شاني
سقيت الغيث من دار	وإن هيجت أشجاني
ولو شئت لما استسـ	قيت غيثا غير أجناني
وما الدهر بمأمون	على تشتيت خلاني

فطرب عبد الوهاب وطرب الجميع من أدائه وشعره وهذا الشعر من بحر الهزج، الذي كان غائبا من شعر المدونة في هذه المرحلة، ولكن في أشعار المغنيين يحضر وهذا يحتاج إلى تفسير، وربما في تلك الآونة يفرقون بين ما يصلح للغناء وما يصلح للأداء في أوساط رسمية أو شبه رسمية

ويبدو هذا التميز أكثر بين الحضارتين: الشيعية والسنية في نظرة كل منهما إلى الفنون، وبخاصة فن الرسم. يقول على اللواتي: "ليس أدل على تأثير الآراء المالكية وفاعليتها في ندرة التصاوير ببلاد المغرب والأندلس، من انفراد العصر

¹ - المصدر نفسه ص 201.

² - المصدر نفسه، ص 205.

الفاطمي في شمال إفريقية بتقاليد تصويرية نكاد لا نجد مثيلا لها قبل حكمهم وبعده. فقد انتهت التنقيبات الأثرية في مختلف حواضر إفريقية إلى ملاحظة أن أهم القطع الخزفية المزينة بتصاوير آدمية وحيوانية وإنما ترجع إلى فترة الفاطمي الشيعي، وقد وجدت نماذج منها في حفريات قرب القيروان. كما عثر على نحت بارز يمثل مجلس شراب طرب بالمهدية العاصمة الأولى للفاطميين وهو نموذج فريد من نوعه لا نجد له إلى اليوم أمثلة أخرى من العصور السابقة واللاحقة¹

ولاشك أن أي ازدهار لأي فن يكشف عن تغير الذوق العام الذي يتجاوز حدود العقائد، والشرائع الدينية، والوضع، وكل أنواع المنع، والقهر؛ كما يحرك آفاق الانتظار، ويفتح تيارا قويا للجمالية تتناص وتتفاعل فيه أنواع الفنون، ومن ثم تحدث في الغالب مؤشرات تغيير الحياة الشعرية لما تتميز بها من حساسية أكثر من غيرها، وبخاصة إن كان في منزلة يسود فيها نوع أدبي عن سائر الأنواع الأخرى كما هو شأن الشعر في الأدب العربي.

ثانيا - مراحل نشأة الأدب المغربي:

إنه لا يمكن الكلام عن استقلال أنساق الأدب المغربي عن هوية أصحابه، أو واقعه الاجتماعي، وفصائه الطبيعي، وكيفما كانت طبيعة هذه العلاقات، وتنوعت تجاربها الإنسانية فإن ما يتميز به المغربي سرعة تمثله لمقومات حضارية جديدة عند تشكيله لأنساقه الفنية، وهذا التميز يفسر ذلك التحول العظيم الذي عاشه المغرب في انتقاله من أدب غير عربي إلى أدب عربي منسجم مع واقعه الحضاري الجديد المؤسس على مقومات دينية وجمالية وفكرية، ومن ثم أصبح الأدب المغربي من الآداب التي عاشت مرحلتين أدبيتين كبيرتين لحضارتين مختلفتين لسانا ومعتقدا؛ ومن ثم أصبح للأدب العربي بيئة جديدة، ويفترض فيها ألا تكون مجرد نسخة من البيئة الأصلية؛ ويعني ذلك أن المغاربة ستكون لهم خصوصية، وحساسية أدبية متميزة بقدر معين عن أدبية المشاركة، ولنلمسها في هذه الروح ذات الاستجابة السريعة في استيعاب التجارب الإنسانية الأصلية الصحيحة القريبة من شخصيتهم المحبة للحرية، وهذه الميزة كانت بفضل موقع بلادهم، تمرسهم في خضم التجارب الحضارية العريقة.

¹ - الكسندر بابا، وبولو، جمالية الرسم الإسلامي، ترجمة على اللواتي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس، 1975، ص 15.

ولا يخفى أن منطقة المغرب كانت منذ القدم ملتقى لحضارات، وثقافات، وديانات العالم القديم، فهي من الفضاءات الحيوية للتجارب الثقافية بين مشرق هذا العالم، ومغربه، كما كانت أيضا فضاء للتبادل بين تجربة الإنسان الإفريقي الحضارية، تجربة الإنسان المتوسطي، بهذا الموقع، وبهذه المركزية كان مؤهلا لأن يكون موطنًا لتفاعل الحضارات، والثقافات، والأفكار، والأذواق، والأحاسيس¹، ولم يكن هذا التفاعل سطحيا بل كان يتميز بحس حضاري رسالي في محتواه مغزاه، وفكر أصيل في ثباته متزن في تفتح، روح نقية طاهرة في أيمانها وعقيدتها، ورؤية كونية إنسانية في شموليتها وأبعادها تربط بين الماضي الحاضر والمستقبل في صيرورتها، ولكن هذا لم يؤد به إلى التخلي كلية عن هويته الحقيقية الأصيلة، وخصوصيته المتميزة، فهو ليس ناسخا، أو ناقلا للتجارب، ولكنه كان مبدعا ضمن كيان حضاري متكامل لم يفقد حيويته في خضم ما عرفه من صراعات وغزو وحروب؛ فكان دوره في هذه المنطقة لم يقتصر على التلمذة على الغير بل كان صاحب ريادة في أكثر من علم وفن².

وما دام الأدب المغربي من الآداب التي عرفت مرحلتين أدبيتين كبيرتين لحضارتين مختلفتين ولسانيتين مختلفين، والمرحلة الأولى هي مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي، وتنقسم بدورها إلى عصور متباينة في لغتها، وطبيعة حضارتها، ومكونات ثقافتها، ومعتقداتها وتاريخها، ومن ثم بالضرورة في أدبها، ويمكن حصر هذه العصور في الآتي:

1 - عصر الأدب التاسيلي

2 - عصر الأدب البونيقي

3 - عصر الأدب اليوناني واللاتيني

أما ملامح هذا الأدب في هذه العصور الطويلة فيمكن تقديمها من خلال بعض الشخصيات وأعمالها في إيجاز شديد حتى نتفرغ للمرحلة الثانية الكبرى. وهذه المرحلة لم تخلف لنا إلا بعض النصوص التي تعبر عن نمط حياة المغاربة وطريقة تفكيرهم، وبخاصة عصر الأدب التاسيلي، والشواهد على هذا الأدب تكاد تنحصر

¹ - عرف المغرب من الديانات: الوثنية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام، ومن الحضارات: الفرعونية، والفنيقية، واليونانية، والرومانية، والبيزنطية، والعربية الإسلامية؛ ومن اللغات: المحلية، والفنيقية، واليونانية، واللاتينية، والعربية.

² - تصدر مثلا في الأدب غير العربي أبلوس بروايتة "الحش الذهبي، والقديس أغسطين بسيرته الذاتية، وابن رشيق وحازم القرطاجني بنقدهما، وأبو الحسن الحصري بمعشراته، وابن خلدون بمقدمته

في تلك الرموز المنقوشة على صخور تاسيلي، وجبال عمور في الأطلس الصحراوي.

وقد حاول مجموعة من الباحثين التاريخيين والانتروبولوجيين، والاثنولوجيين والاجتماعيين والفنانين في العصر الحديث الاهتمام بهذه النصوص أو الرسائل الرامزة، وبخاصة الرسامين والشعراء، وقد اتجهت أبحاثهم منذ البداية إلى تفسير دلالاتها، وفك رموزها، واستأنسوا بجميع الوسائل بما فيها علم تفسير الوشم لما له من علاقة دلالية رمزية بهذه النقوش لتفسير محتواها، وترجمة نصوصها العاكسة لحياة أصحابها وثقافتهم، ونمط تفكيرهم وتصورهم للكون ولقضايا عصرهم وتسجيلهم لأهم أحداث تاريخهم منذ آلاف السنين.

وفي الحقيقة فإنه لم يبق من ذلك الماضي السحيق الذي يساعد على فك رموز تلك النقوش غير بعض السجلات المكتوبة بلغة الأمازيغ واتخذت من حروف تيفيناغ وسيلتها في التدوين والتعبير.

2 - عصر الفينيقيين:

كان الفينيقيون يجوبون البحر الأبيض المتوسط، ويستقرون في المناطق الساحلية، ويحاولون نشر لغتهم وثقافتهم وآدابهم. وقد استطاعوا أن يغيروا الصورة الحضارية للمغرب، وساعدهم في ذلك سهولة انتشار لغتهم، وثقافتهم، وامتزاجها بلغة وثقافة السكان المغاربة، ولكنه لم يبق من ذلك الفكر والثقافة إلا بعض الإشارات التاريخية أو بعض الآثار التي تحمل رسوما ونقوشا تحمل مضامين تعبر عن روح عصرهم.

3 - العصر اليوناني واللاتيني:

إن الأعمال الأدبية والفكرية وأصحابها التي وصلتنا عن هذه المرحلة من السكان الأصليين كانت مكتوبة بلغتين أجنبيتين هما: اللغة اليونانية واللاتينية. ومن الكتب التي وصلتنا باللسان اليوناني نذكر على سبيل المثال مؤلفات يوبا الثاني في المسرح واللغة والقواعد، والرسم، والجغرافية، بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك كتباً أخرى كثيرة وصلتنا باللغة اللاتينية، وفترة سيادة اللغة اللاتينية من أطول الفترات في تاريخ المغرب العربي القديم، فهي تبدأ من القرن الأول الميلادي إلى غاية الفتح الإسلامي في نهاية القرن السابع الميلادي، ويرى "جون عميروش" يوغرطا نموذجاً للشخصيات الأدبية المتميزة التي تعبر وتكتب باللغة اللاتينية، بل

تبدع بها وتتحكم في أساليبها الأدبية الرفيعة، وتستعذب لغتها الرقيقة المحملة بشحنات من الانفعال، وبطاقة من التصوير الجمالي، والاهتزاز الشعري. وهذا المزاج الفني هو ما دفع بعض الباحثين إلى التمييز بين الكتاب والأدباء النوميديين، وبين غيرهم من اليونان والرومان. يقول أحد الباحثين عن هذا الأدب: إن هؤلاء الأدباء والمفكرين ظلوا متميزين بأساليبهم ولغتهم العاكسة لواقعهم والمعبرة عن شخصياتهم لكونهم قرطاجيين، وموريثانيين ونوميديين.¹

وقد ظهر أدباء ومفكرون وشعراء في هذه الفترة يكتبون باللغة اللاتينية ومنهم فرنطون (Franton) الذي ولد في (سيرتا) قسنطينة الحالية، وهو معلم ومربي لمارك أوريل، وكانت له مقالات وتقارير أخرى، ومنهم أبوليوس المدوري المشهور الذي ولد في مداوروش، ويعد من رواد كتاب فن الرواية في العالم بتأليفه لروايته الخيالية تحت عنوان: "تحولات أو الجحش الذهبي" يقول عنه علي فهمي خشيم في مقدمة ترجمته لهذه الرواية من الانجليزية: "كلما ذكر اسم "أبوليوس" في مصدر من المصادر...قفزت إلى الأذهان مباشرة صورة ذلك "الجحش الذهبي"، وفي الأصل اللاتيني تميزت هذه الرواية بثلاثة أشياء: لغتها، وأحداثها، وأفكارها. وهي نقلت إلى أغلب اللغات الحية من أهمها الانجليزية التي نقلت عنها إلى العربية، أما في اللاتينية فقد كانت مبعث اهتمام الأقدمين والمحدثين، لغرابة ألفاظها، وتركيب عباراتها وجملها، وكان الكاتب مغرما بالوحشي من الكلمات واللعب بالمعاني عن طريق التلاعب بالألفاظ، حتى صارت عباراتها أمثالا مشهورة في أدب اللاتين... إن أبوليوس قد اتبع في كتابتها أسلوب القصاصيين الذي ينتحي أحدهم جانبا من السوق ويصيح لجمع المستمعين: "اعطني قطعة من النحاس، وسأقص عليك حكاية ذهبية" فكلمة "الذهبي" أو "الذهبية" إذن كانت وصفا للقصة فصارت وصفا لجحش أبوليوس.

كما وصلتنا آثاره الأخرى مثل: الأزاهير (Florida) وهي مجموعة محاضرات ومقالات في الفلسفة والأدب، ثم الدفاع (Apologia). وهو مرافعة بليغة ألقاها في مدينة صبراتة الليبية حين اتهم باستعمال السحر ليتزوج أرملة ثرية في مدينة أويا (طرابلس حاليا) ويستحوذ على ثروتها، ثم قرين سقراط (De Déo Socratis)، وهو كتاب في الفلسفة السقراطية.¹

¹ –Jean Déjeux . Lattérature Algerienne . Presses Universitaires De France ;1975 .P 6-7

ومنهم ترتيليان الذي ولد في قرطاجة، وكتاباتهما في أغلبها يدافع فيها عن العقيدة المسيحية (النصرانية)، ومنهم أيضا منيبويس فليكس الذي ترجع أصوله إلى مدينة تبسة وهو كاتب حوار الثمانية.

وفي القرن الثالث الميلادي نجد أيضا من هؤلاء الأدباء: أرنوب ولاكتانس، وسبريان القرطاجي، ويوغرطا.

كما نجد في القرن الرابع من أويتا الميلبي وفرانتون وتارك أوريل، وبخاصة القديس أوغسطين الذي ولد في سوق اهراس سنة 354م وتوفي في عنابة 430م، وهو مفكر وعالم لاهوتي متميز، وخطيب، ومؤلفاته كثيرة، وأشهرها على الإطلاق، اعترافاته، وكتبه من أكثر الكتب انتشارا في العالم وبخاصة في العالم المسيحي.

كما نجد أيضا في القرن الخامس كل من فلجانس (Fulgence) المولود في تبسة. وفي عهد الاحتلال الوندالي والبيزنطي، نجد أيضا مجموعة من الشعراء واللغويين مثل: بريسيان (Priscien)، وكوريبيوس (Coripuis) وسواء أكان هؤلاء الكتاب من الوثنيين أو من رجال الكنيسة الإفريقية، فإنهم يكتبون كلهم باللغة اللاتينية، ويمثلون طابعا أدبيا حقيقيا خاصا بهم، لا باعتبارهم أفريقيين في الأوساط الأدبية، ولكنهم من أدباء ما وراء البحر.²

كما أن بلاد المغرب كانت مفتوحة أمام الأدب اللاتيني، واليوناني بالإضافة إلى تأثيرات الثقافات الأخرى وبخاصة الثقافة الشرقية، وبهذا الانفتاح كان المتقف الإفريقي لا يقل شأنًا من غيره من ذوي الثقافات العريقة الرفيعة، ولم يكن المغاربة يأخذون فقط، بل قدموا بعقرياتهم للثقافة الإنسانية أعمالا أدبية خالدة. والمغاربة في عهد الاحتلال الروماني كانوا يتميزون بالقدرة على الإبداع الخيالي السحري ويحسنون الخطابة، وأساليب الإقناع والجدال، وتستهوهم الأساليب الجميلة والاستعارات البعيدة الأخاذة، ويمتلكون المهارة والبراعة في فن الهجاء والمدح والهزل.

كما أنهم يمتلكون اللغة الأدبية الرفيعة، ويبدو ذلك واضحا في أغلب ما كتبوه من أدب وفكر وتاريخ، لكنهم لضرورة التواصل مع كل مستويات أقوامهم يلتجئون إلى اللغة الشعبية في كتاباتهم الموجهة إلى وعي الناس، وجعلها سلاحا في كفاحهم

1- لوكيوس أبوليوس، تحولات الجحش الذهبي، ترجمة علي فهم خسيم، المنشأة العامة للنشر والتوزيع طرابلس ط1 1980 ص 9-13

2- Jean Déjeux. L'Algérienne. Presses Universitaires De France; 1975. P 6-7.

وانظر أيضا عباس الجراي، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، الجزء الأول مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1979، ص 56

ضد المستعمرين، والتاريخ يشهد أن الدونانتيين كانوا يؤلفون مزاميرهم وأهازيجهم باللغة الشعبية إبان صراعهم مع الكنيسة الرسمية. والمرحلة الثانية هي مرحلة الأدب العربي بعد الفتح الإسلامي، وهي تنقسم بغيرها إلى العصور الآتية:

1 - عصر الفتوحات

2 - عصر الولاة

3 - عصر الدول والممالك، وينقسم بدوره إلى الفترات الآتية:

أ - فترة الدولة الأغلبية والرسمية والإدرسية

ب - فترة الخلافة العبيدية

ج - فترة الزيريين والحماديين

د - فترة المرابطين

هـ - فترة الموحيدين

و - فترة الحفصيين والزيرانيين والمرينيين

ز - فترة الحكم التركي

ح - فترة الأدب الحديث.

ويقسم رابح بونار الأدب المغربي في مرحلته الثانية إلى عصر النشوء الذي يمتد من (50هـ إلى 184هـ) ثم يدمج هذا العصر مع عصر النهضة الذي يمتد إلى غاية 296هـ وهو التاريخ الذي سقطت فيه الدول السنية الأولى الهرمة أمام بروز أول دولة شيعية فنية، ثم يأتي أدب الدول اللاحقة.¹ ودراسة الأدب المغربي في مرحلته الكبرى الثانية بعد الفتح الإسلامي يثير بعض الإشكاليات التي يمكن التخفيف من حدتها المنهجية من خلال تناولنا لقضيتين من رؤية أخرى، وهما:

¹ - رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 ص 47-85

1 - حدود الأدبية المغربية:

تواجهنا في قضية تحديد الأدبية المغربية في فترة تستوعب إبداع أقاليم عديدة بلسان واحد، وهذه الإشكالية تتمثل في كيفية فرز المادة الأدبية المغربية عن غيرها بحدود إقليمية، وليست لسانية، ومن شخصيات متحركة، ومن حركات متداخلة، ولم يتيسر لنا ذلك إلا بالالتجاء إلى تحليل مقومات أطراف نظام الإبلاغ التي تنحصر في المرسل والرسالة، والمتلقي، ولا مشاحة بأن صاحب الخطاب تكونه مقومات صغرى هي: الميلاد، والنشأة، والنبوغ.

والخطاب الأدبي تحدده مقومات: لغته ومكان إنشائه، ومضمونه، ومرجعياته، الحضارية والواقعية والنفسية، وجنسية صاحبه.

وتتحدد هوية المتلقي من مقومات جنسيته، ومكان التلقي، وزمانه، ونوعه؛ ومن تقاطع مقومات هذه الأطراف الثلاثة، وتفاعلها يمكن تحديد ثلاث درجات لمغربية النص الأدبي وكل درجة من هذه الدرجات تكشف عن العناصر المشكلة لهوية النص المغربي.

والدرجة الأولى تمثلها تلك النصوص الكاملة في مغربيتها، ويعني ذلك أن جميع مقومات أطرافها مغربية، وأغلب نصوص الأدب المغربي المشهورة من هذا النوع.

والدرجة الثانية تمثلها تلك النصوص التي تفتقد إلى مقوم واحد من مقومات النص والمبدع والمتلقي، ويندرج في هذا النوع أشعار ابن هاني التي قالها في المغرب بمعناه الضيق

والدرجة الثالثة تندرج فيها تلك النصوص التي يعوزها أكثر من مقوم من مقومات الأطراف الثلاثة المكونة للحركة الأدبية.

وهذا الإجراء يستأنس بأسلوبية المقام التي تقبل بإدخال عناصر غير لفظية ترى بأن لها دورا ما في تحديد طبيعة الأسلوب سواء من حيث الإبداع أم التلقي أم كلاهما معا، وهذا المقام ليس إلا مجموعة الحالات الظرفية، والنفسية، والاجتماعية والجمالية التي أنتج فيها النص الأدبي أو التي يتم فيها تلقيه بجماليات العصر.

كما أن أهمية هذه المقومات ليست على درجة واحدة، وتأتي اللغة الأدبية والانتماء الإقليمي للشعراء في المقام الأول، والافتقاد إلى إحداها يفقد الأدب هويته المغربية العربية بالنسبة للمقوم الأول، وهويته المغربية بالنسبة للمقوم الثاني، وقد أبعدنا النصوص التي تفتقد إلى واحد منها أو الاثنين من أدبية المغاربة.

2 - تقسيم مراحل الأدب المغربي على أساس التطور الأدبي المحض:

وفي الحقيقة فإن هذا التقسيم الطويل والكبير للأدب المغربي العربي الذي يربط الحياة الأدبية بالأسر الحاكمة يمثل إشكالية منهجية لأن التاريخ الأدبي غير التاريخ السياسي، فالأول هو تاريخ للأفكار والأحاسيس والعواطف والأذواق والمشاعر الأمر الذي يضيف على النصوص الأدبية تفردا في ظواهرها، وتميزها في كينونتها وعوالمها، ومن ثم فهي بقدر ما تتقاطع مع الواقع وسياقاته فهي تسمو عليه وتتجاوزها لذا بات من أكاد المهمات البحث عن نظام آخر يتفق مع طبيعة الأدب في سيرورته التاريخية من علاقاته الداخلية ودوراته الكاملة في الإبداع والتداول والتحقيق، ويمكن تقسيم الأدب على ضوء ذلك ثلاث دورات لأن تاريخ تطور الأدب المغربي كأدب يبدأ من وحداته الأساسية وعلاقاتها ونظامها، أو هي لا تنشذ عن نظام الظواهر الكونية، والسيمائية، واللسانية التي لها قابلية التوزيع على وحدات صغرى في المستوى الواحد، وقابلية الاندماج في وحدات كبرى حين الانتقال إلى المستوى الأعلى.¹

وتعتمد الدراسة التاريخية التطورية أساسا على الشخصيات، تهبط إلى الأنواع، والأنماط والخصائص، والظواهر، وتصعد إلى الأجيال، والمراحل، والعصور؛ وفي ضوء هذا التدرج الخاضع لطبيعة الأدب نفسه يمكن تجاوز ربط التاريخ الأدبي بالتاريخ السياسي، وجعل تطوره منذ الفتح الإسلامي في ثلاث دورات:

الدورة الأولى:

تمثل بدايات الأدب المغربي التي كانت معنية أكثر بمهمة تأسيسه في البيئة الجديدة، وكانت الوظيفة الإبداعية في هذه الفترة تقتصر على إنتاج نصوص أدبية تتلوه عمليات التلقي في اتجاه واحد، الدورة الأدبية الكاملة - في هذه الحالة تبدأ من النص، وتنتهي عند المتلقي غير الفاعل أو السلبي، وبه تكتمل الدورة الأدبية، ولا تعود مرة أخرى في دورة جدلية أو حوار مستمر بين النص وتواصله الجمالي الذي يؤدي بدوره إلى بروز دوامات من النشاط الإبداعي الخلاق، وهكذا كانت الدورة التأسيسية الأولى لأدب المغربي الذي لم يكن جديدا من حيث الوجود الأول بقدر ما كان إعادة لتأسيس أدبي في فضاء جديد.

¹ - R , barthe, et autre ,Analyse structurale du Recit, edictin, du seuils, paris, 1981, p 29

وتستغرق هذه المرحلة القرن الأول الهجري، والنصف الثاني من القرن الذي يليه، وهي فترة تعد طويلة بالقياس إلى مراحل التأسيس المعادة، والمسبوبة بتأسيس أصلي تم منذ قرون.

وأدب هذه الدورة لا يشكل حركة أدبية متكاملة تتجاوز، أو تكون في مستوى نصوصه الأصلية كما حدث في بيئات أخرى كالعراق والشام، ويعود هذا إلى أسباب منها:

إن فترة فتح المغرب تعد من أطول الفترات بالنسبة للأقاليم الأخرى، فهي تتجاوز نصف قرن، وهذه الوضعية لم تساعد على استقرار المغرب، ومن ثم على ازدهار الأدب فيه. إن فترة حكم الولاة لم تكن خالية من القلاقل، والثورات، والصراعات القبلية بالإضافة إلى الخلافات السياسية المذهبية التي نشأت في المشرق وانتقلت إلى المغرب. واختلاف اللسانين العربي والمحلي،¹ وهذا من أهم العوامل التي أخرت تأسيس حركة أدبية مغربية تكون موازية لتأسيس مدينة القيروان سنة (50 هـ)، وكان يفترض فيها أن تكون إحدى المراكز الأدبية المنافسة للمراكز الأخرى في العراق والشام.

كما يمكن إرجاع جفاف الإبداع الأدبي المغربي كما يقول إبراهيم الدسوقي- إلى "أن فاتحي المغرب كانوا يمينيين، وأن اليمينيين أضعف في مضمار الشعر من المضريين، فلا عجب أن سدت سوق الشعر هناك، فلم ينظم منه غير القدر الهين الذي لم يستطع أن يطاول الزمن، ويقاوم عوامل الفناء ليصل إلينا عبر القرون".² كما يعود ضعف تطور الأدب المغربي إلى "بعد الشقة بين المغرب، والمراكز لأدبية القوية في العراق والشام، والضعف النسبي لكثير من شعر الفتوح، وأولوية شعر البلاط لدى كثير من المهتمين به في محافله آنذاك"³ غير أن هذه الأسباب لم تقف عائقاً في نبوع بعض المغاربة في نهاية القرن الأول الهجري أو بداية القرن الثاني وأحسن مثال على ذلك ظاهرة طارق بن زياد سابق البربري المظماطي الذي يعد شخصية مغربية متميزة بالنظر إلى غزارة إنتاجه الأدبي ومستواه الفني ومتانة لغته، وبعض اللغويين يحتج بأدبه شعره بالإضافة إلى تأسيسه لتيار الشعر الزهدي قبل أبي العتاهية.⁴

¹ - د/ العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرسومية والإدرسية، ديوان المطبوعات الجزائر، ص36.

² - د/ إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1973، ص9.

³ - المرجع نفسه، ص9.

⁴ - عبد الله كنون، سابق البربري المظماطي شاعر من المغرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1969، ص1-2.

الدورة الثانية:

وتمتد من النصف الثاني من القرن الثاني إلى نهاية القرن الثالث، وتتميز بالتفاعل بين عمليات الإبداع والتلقي، الأمر الذي يؤدي إلى إنتاج معرفة أدبية عامة، لكن هذه المعرفة لا تتجاوز المقولات المعمقة للفهم والتذوق، والمؤدية إلى حساسية تتناسب مع روح العصر، يشارك فيها الأدباء الشعراء واللغويون والعلماء والفقهاء ويروى أن أحمد ابن أبي سليمان لما سمع قول بكر بن حماد (الوافر):

فيا سبحان من أرسى الرواسي وأوتدها على السبع الشداد
فقال له أحمد ابن أبي سليمان: "رفعت الجبال فوق السماوات، وأنزلت السماوات تحت الجبال" فقال لي: "وكيف ذلك؟" فقلت له: "اقرأ سورة عم يتساءلون" فقرأها حتى انتهى إلى قوله تعالى "وبنينا فوقكم سبعا شدادا" فقال لي: "والله لقد أنشدته بالعراق ومصر وتهرت والقيروان فما فهمه، وقد كسرت أنه أنت فأصلحه" فقلت له: "أفلا قلت فأوتدها مع السبع الشداد؟" قال: فقال لي: "قد أصلحت ما أفسدت"¹.
ونموذج آخر من قصة حبس فيها إبراهيم بن أحمد الأغلب كاتبه محمد بن حيون المعروف بابن البريدي فكتب له من السجن (البسيط):

هبني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادني نحوك الإذعان والندم
يا خير من مدت يدي إليه أما ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الموك إذا استرحموا رحموا
فلما قرأ إبراهيم بن أحمد أبياته قال: "يكتب إلي هبني أسأت" وهو قد أساء أما إنه لو قال: (الوافر)

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهينا للكرام الكاتبينا²
وكذلك حكاية توبة أبي عقاب عن قول شعر المجون، والتي رواها الشيخ أبو الحسن فقال:

"إن أبا عقاب أنشد شعرا يصف فيه أحواله التي كان يفعل قبل توبته، فقيل للشيخ هل يجوز مثل هذا، أن يذكر الإنسان أفعاله القبيحة؟ أما يدخل هذا في حديث ابن عمر الذي قال فيه "من المجانة أن يعمل الإنسان عملا بالليل فيصبح يخبر". فقال الشيخ أبو الحسن: "إن أفعاله كانت ظاهرة غير مستترة عليه، فقيل له "وقد

⁵ - المالكي، رياض النفوس، ج2، تحقيق بشير بكوش، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2، 1414هـ، 1994، ص508.

² - ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، ج1، دار المعارف بمصر، ط2، 1985، ص265 - 266.

أخبر بها هو في شعره لمن لم يكن يعلمها منه، فقال: "إنه لو لم يخبر بها هو من يعلمها بلغته من غيره".¹

ويلاحظ على النماذج الثلاثة السابقة مدى تفاعل النص الإبداعي مع المتلقين ونوعه، وقد وقعت العملية الأولى بين فقيه شاعر وبين شاعر آخر؛ وما يهمنا من هذا التواصل بينهما جعل النص الشعري يناص بالدرجة الأولى النص القرآني. وفي النموذج الثاني كان التواصل بين كاتب شاعر وبين ملك، وهذا التواصل جعل الأبيات الشعرية تتناص مع تقاليد الحكم وفلسفته المتسلطة، والمعنى الحقيقي يكمن في إعلاء سلطة السياسة فوق سلطة النص الشعري.

والنموذج الثالث يقع التناص فيه بين التداول الأدبي والفتوى الشرعية وبين الفعل الكلامي والسلوك الواقعي، ولا معنى للنص خارج التناص مع النص الديني، ومن ثم جعل سلطة الدين والأخلاق فوق سلطة النص الشعري، فالأدب في هذه الدورة تخطى عن عفويته وبساطته التي كان عليها في الدورة الأولى في عملية التواصل الأدبي، وأصبح النص وسط شبكة معقدة من العقائد والمفاهيم والأفكار والأمزجة تدل كلها على أن المغرب دخل في روح حضارية ثقافية جديدة.

الدورة الثالثة:

وهذه الدورة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن الخامس، وهي دورة (ابن هاني وابن رشيق أبو الحسن الحصري)، وهي قمة الدورات، وفيها تجاوزت الحركة الأدبية المغربية المتلقي السلبي، إلى خطاب أدبي شامل منتج للمعرفة الأدبية تفسيرا، وتنظيرا، وحوارا، ومنهجيا، واستقطابا لكل المعارف الإنسانية، وأصبح الأدب، فعلا نتاجا حضاريا شاملا بأنظمة سمائية متحاورة، ومتناصّة مع التراث والواقع والفكر والوجدان، وفي هذه المرحلة أصبحت "إشكالية أي نص هي إشكالية الإنسان نفسه، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، وحين الكلام عن أحدهما نجد أنفسنا نتكلم عن الآخر، بل كثير ما يتبادلان الأدوار لأن خصائص النصوص هي امتداد لطبيعة ذات الإنسان، وفي هذه الحالة تسمح بإيجاد علاقات بين الناس، وتصبح بمقتضى ذلك تجربة اجتماعية من الطراز الأول، وبهذا يتمكن الإنسان من بناء أي معنى، كما يستقبل كل المعاني ويرسل أخرى، كما يمكن تحويلها، وكل المعاني تتشكل في النصوص، وكل الحقائق يمكن البحث عنها فيها".²

¹ - المالكي، رياض النفوس، 537/1

² - A.Fossion J.P Laurent, Linguistique et pratique textuelle, A de Borek, Bruxelles, 1981 P:7

وقد حقق الأدب المغربي في هذه المرحلة تراكما معرفيا لم يسبق له مثيل في تاريخه سواء قبل الإسلام أم بعده، وفي هذه الدورة انتقل المغرب من مرحلة المعرفة المروية إلى مرحلة المعرفة المكتوبة.

كما ظهر في هذه الدورة شعراء ونقاد وكتاب تجاوزت شهرتهم المغرب، ومنهم ابن هاني، وأبو إسحاق الحصري، وعبد الكريم النهشلي، وابن رشيق، وابن شرف، وأبو الحسن الحصري.

وعلى العموم فإن الأدب في هذه المرحلة قد تجاوز مرحلة التأسيس الأدبي، كما عرف تحولا في عقيدته من السنة إلى الشيعة، ومن ثم تغيرت ملامح المغرب كله.

وعلى الرغم من هذا التحول العميق للبنى الفكرية، والفنية فإن النص الأدبي بقي مهيكلًا في ثلاث جبهات متضادة، أو تحت التضاد.

وأول هذه الجبهات تلك التي تبنت العقيدة الشيعية، وجعلت أدبها سلاحا يرسخ كيان السلطة الجديدة، ومن هؤلاء ابن هاني، وعلي الإيادي، وكثير من الشعراء المقلين الذين يزدون عن (60) شاعرا جمعهم محمد اليعلاوي في كتابه "الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي".

والجبهة الثانية كانت معارضة بأدبها ولم تعرف الثبات في مواقفها، بل كانت في مد وجزر في علاقتها مع السلطة، والفزاري أحسن من يمثل هذا التذبذب إذ كان في بداية الأمر معارضا للسلطة ثم أنجذب إليها مكرها بعد أن أهدر دمه،¹ ويشارك الأدباء في مباركتهم أو معارضتهم للسلطة الشيعية العلماء والفقهاء، والشعراء، وهؤلاء كانوا أكثر ثباتا في رفضهم القيام بتأويل النص النقلي بما يخدم العقيدة الشيعية الوافدة على المغرب، ووصل بهم حد الرفض إلى الانضمام إلى ثورات مناهضة للسلطة الشيعية²

والجبهة الثالثة هي جبهة النص الأدبي المحايد؛ وكانت موضوعاته في كون غير الكون السلطوي أو أنها لا تتقاسم معه الفضاء في استراتيجية وجوده، وهؤلاء الأدباء كانوا يعيشون في غربة عن واقعهم، وأغلبهم من الزهاد والمتصوفة.³ وهذه الجبهات تكشف عن البنية الفكرية للمغرب في القرن الرابع الهجري المولدة لسائر البنى الثقافية، والحضارية.

1 - قصة هذا الشاعر مع السلطة الشيعية كاملة عند المالكي، رياض النفوس، ص 489/2.

2 - أخبار انضمام علماء المالكية إلى ثورة أبي يزيد مخلد بن كداد، رياض النفوس، للمالكي، 292/2.

3 - الشعراء الذين ذكرهم التادلي في كتابه التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، ص 128-31.

والبنية الأولى - من هذه البنيات - تمثلها نصوص ذات توجهين: توجه تحريضي بأسلوب مباشر لقتال المخالفين للمذهب، وهذا التوجه تمثله بعض النصوص الأدبية والشعرية.

أما المرحلة الثانية فكانت أيضا نتيجة تحول عقائد وفكري وثقافي وحضاري وإجتماعي، والمغرب في هذه المرحلة قد تخطى عن المذهب الشيعي، ورجع مرة أخرى إلى المذهب السني فتحوّلت بهذا التغيير الحياة الأدبية، والفكرية والثقافية، والحضارية، ويبدو هذا التحول في ازدهار النقد الأدبي، والنثر الإبداعي والتأليفي، ويعني ذلك قلبا لترتيب الجبهات السابقة بحيث يصبح النص السني هو الغالب في الحياة الأدبية بينما تراجع النص الشيعي إلى حد الندرة، كما أن التغيير في البنية الأدبية المغربية ترجع إلى العلاقة بين النثر والشعر، وحجم ازدهار كل منهما، وإذا كانت الغلبة للشعر في الدورات السابقة فإن الغلبة في هذه الدورة للنثر الإبداعي والتأليفي؛ وهكذا يبدو الاختلاف بين المرحلتين في هذا التعاكس الأسلوبي بين الجنسين الأدبيين ومدى سيطرة كل واحد منهما على الحياة الأدبية، والعلاقة بين الأسلوبين مجال لكثير من النظريات الأسلوبية منها نظرية اعتبار الشعر انحراف عن النثر من حيث الكثرة والجود.

كما أن سميولوجية التعبير الأدبي الحديثة لا ترى فيه غير انزياح أو عدول بحسب قيرو، وسبيتسر، وبالي¹ تتمثل فيهما سيمات الأثر الأسلوبي، ومن ثم فإن الأدبية تحدد بوصفها أسلوبية النوع التي تدرس وتقيس عدولات خصائص ليست لفرد وإنما هي لنوع أدبي، ومفهوم أسلوبية الأنواع يقترب من مفهوم الكتابة عند بارت.¹

ويبدو أن البنية الأدبية بقدر ما تتعدد أنواعها، وتتشابك علاقاتها تزيد من حيويتها، وبخاصة إذا كانت هذه البنية متضمنة لمدرج نوعي، وتقويمي، وأسلوبي، وثابت في قمته، ومتباين في أسفله، وهذا المدرج بهذا التصور خاص بالأدب العربي لأنه يضم في قمته القرآن والحديث، ثم يأتي بعد ذلك الشعر، والنثر، ويعني ذلك كما يرى بعض النقاد والبلاغيين² أن جيد الشعر يقابله رديئه، ورديء الشعر يساوي جيد النثر، ثم يأتي بعد ذلك رديء النثر، لكن القرآن في المدرج الترتيبي يفتقد إلى الحلقة الوسطى بينه وبين غيره، لأنه جيد كله.

¹ - G. Gerard, figure II, édition de SEUILS, Paris, p 127.

² - الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف بمصر ط 1981 ص 62-63

ومظهر آخر من مظاهر تغير البنية الأدبية، وحساسية الأدباء نتيجة تغير روح العصر ومقوماته التي تلت العهد الشيعي، وتبدو في انزياح الأدب المغربي في بنيته الدلالية نحو موضوعات جديدة لم تكن رائجة من قبل، ومن هذه الموضوعات وصف الأشياء، والكائنات، بمنهج فني وصفي جمالي، وأحيانا يكون ساخرا تهكميا قصد اشباع النهم الفني أو الفكري المذهبي.، ونختتم دراستنا بهذه الملاحظات:

1 - لا يخفى أن التأطير الجغرافي للظاهرة الأدبية يمزق وحدتها وكيانها، لأن الانطلاق من المنهج الإقليمي في دراسة الأدب الواحد لا يسلم من الزلل العلمي المنهجي، وهذا يعود من الوجهة الإجرائية إلى صعوبة فرز المادة الأدبية المغربية من غيرها من الخطابات من خلال فضاء أدبي واحد متحرك، ويتمرد عن كل الحدود والقيود إلا الحدود اللغوية والقيود الفنية.

2 - إذا كان أمر فرز المادة الأدبية المغربية من غيرها يمثل إشكالية منهجية حقيقية فإن فرز المادة الأدبية نفسها من غيرها، وإن اشترك الكل في اصطناع الكلام يمثل إشكالية أخرى تدخل في صميم النظريات الأدبية وعلومها بدءا بنظرية الأنواع الأدبية الثلاثة، وانتهاء بنظريات الانزياح على المستوى الأسلوبي، الصوتي والنحوي والبلاغي.

3 - إن الإشكالية الأخيرة يمكن التغلب عليها بالتسليم بقوالب الأدب العربي القديمة المشهورة التي اعتمدها النقاد القدامى للتمييز بين النص الأدبي وغير الأدبي، أو النصوص التي لا تخضع لأي شكل من أشكال قولبة إطارها العام، ولكنها في مقابل ذلك تحقق قالبها من خلال تضمنها لقدر من الجدارة الأدبية في شكلها وخصائصها العامة والخاصة. ويمكن حصر الشككين فيما يأتي:

أ- الأشكال الأدبية ذات القالب الصافي:

وتتمثل في الشعر غير التعليمي ببنياته المكانية والزمانية سواء ما حافظ منه على النظام التناظري الموحد في وزنه وقافيته أم لم يحافظ، وأغلب الشعراء المغاربة في القرون الأربعة الأولى لم يحاولوا الخروج عن النظام التناظري للقصيدة بالإضافة إلى محافظتهم على وحدة الوزن والقافية.

وبدأ الشعراء المغاربة يزاوجون بين هذا الشكل والأشكال الأخرى المقطعية في القرن الخامس الهجري، فنظموا الخمسات، والمربعات والمسمطات والموشحات.

أما الفنون النثرية ذات الشكل الأدبي الواضح فيمكن لنا إدراج الخطابة بجميع أنواعها وأغراضها وأساليبها، والرسائل بجميع أشكالها سواء كانت سلطانية أم ديوانية أم إخوانية، أم علمية، والمقامات بجميع أساليبها وبنياتها السردية وشخصياتها.

ب - الأدب المتحرر من القوالب الصارمة:

ويشمل هذا النوع من الأدب التراجم العامة والسير العامة والذاتية، وقد شاع هذا النوع من النثر وازدهر في القرن الرابع وما بعده، ويدور حول سير الفقهاء والعلماء والشعراء، والمتصوفة والكتاب، والنقاد، كما يشمل أيضا أدب الرحلات الذي شاع في القرن السادس والسابع وما بعدهما.

وخلاصة القول فإن النثر يمكن حصر أشكاله في ثلاث مجموعات كبرى هي:
أولاً- مجموعة الخطابات ذات الوظيفة الإقناعية الانفعالية الوصفية وتضم ما يعرف بالنصوص الأدبية النثرية التي تتجه في نظام تواصلها إلى المتلقي الخاص أو العام في العالم المنظور وتضم الخطب والوصايا والمناظرات... الخ.

ثانياً- مجموعة الخطابات ذات الوظيفة الوجدانية التعبيرية وتضم الخطابات الأدبية التي تركز في نظام تواصلها على المتلقي الخاص وتضم الأدعية والرسائل... الخ.

ثالثاً- مجموعة الخطابات ذات البنية السردية وتضم كل ما أنتج من نثر في فن السير والتراجم والحكايات القصصية... الخ .

هذه أهم الأشكال الأدبية التي تمثل واقع الأدب المغربي التي اعتمد ها هذا البحث بحسب ما جمعناه من مصادر الأدب المغربي.

I _ المصادر العامة :

- 1- ابن منظور لسان العرب، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت لبنان 1408 هـ 1988 م.
- 2 - الجرجاني، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405
- 3 - الموسوعة الميسرة، م 1، مطبعة الشعب مصر، 1407 هـ -1987
- 4 - معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.

II _ المصادر الخاصة والمراجع :

- 1- د/ إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1973،
- 2- ابن الأبار، الحلة السيرة، ج1، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف بمصر، ط2، 1985.
- 3- الجاحظ، الحيوان، ج3، تحقيق، عبد السلام هارون، مصطفى الباي الحلبي، القاهرة 1948 - البيان والتبيين، المجلد الأول، دار التراث العربي، بيروت-لبنان، (دوت)
- 4- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، القسم الثاني، مكتبة المنار تونس، 1965
- 5- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والعبر، ج7، طبع القاهرة، (دوت)
- 6- "أبي زكريا يحيى بن أبي بكر"، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.
- 7- د/سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، دار المعارف، الإسكندرية 1979،
- 8- عبد الله كنون، سابق البربري المطمطي شاعر من المغرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1969
- 9- عباس الجارري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، الجزء الأول مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1979
- 10- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1
- 11- محمد البشير شنيقي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.

- 12 د/ العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدرسية، ديوان المطبوعات الجزائر.
- 12- الكسندر بابا، وبولو، جمالية الرسم الإسلامي، ترجمة على اللواتي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس، 1975.
- 13- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر مصر، ط3، 1969.
- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مكتبة عمار القاهرة، ط1 1971.
- 14- محمد شكري عياد، اتجاهات الدرس الأسلوبي، أصدقاء الكتاب، القاهرة، 1969.
- 15- محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية ببيروت، (د.ت)
- 16 - محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، القاهرة 1963، ج1.
- 17 - المالكي، رياض النفوس، ج 1 تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1414 /1994.
- رياض النفوس، ج2، تحقيق بشير بكوش، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2، 1414هـ، 1994.
- Dictionnaire du Français Contemporain. Librairie Larousse /Paris
18. Barthe, et autre, Analyse structurale du Recit, édition, du seuil, Paris, 1981
19. A.Fossion J.P Laurent, Linguistique et pratique textuelle, A de Borek, Bruxelles, 1981 P:7
20. Gerard, figure II, édition du seuil, Paris, p 127.
21. Jean Déjeux. Littérature Algérienne. Presses Universitaires De France; 1975.